بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني

الباب الثالث

بيروت في اول عهد الصليبيين

حصلت في اواسط القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح اضطرابات عديدة في الشام بين الدولتين الفاطميّة والسلجوقيّة التركيّة. وكان اوّل ظهور السلجوقيين في العجم فاستولوا على العراق ثمّ تفرّعوا فروعاً مختلفة وبسطوا ظلّ سلطتهم على بلاد ما وراء النهر والجزيرة وكرمان والاناضول وقونية

وكان اعظمهم شوكة معزّ الدين ملك الشاه بن الب ارسلان فتملّك على عدّة بلاد وزحفت جيوشهُ الى الشام فملك قسماً كبيراً منها وولّى اخاهُ تُتُش على حلب ودمشق وصارت سواحل الشام ومن جملتها بيروت تحت سلطته. ولمّا توفي سنة ٤٨٨ه (١٠٩٥م) خلفهُ ولداهُ رضوان ولم يطل ملكهُ ثم دقاق بن تُتُش في ولاية حلب وجعل دقاق على دمشق احد امرائهِ الاتابك ظهير الدين طغتكين فدبّر امورها وساس المدن اللاحقة بها ولما توفي دقاق استقلّ بالحكم الى سنة وفاتهِ ٤٩٧ه (١١٠٥—١١٠٦)

وكان الفرنج الصليبيّون في تلك الاثناء قدموا الى انحاء الشام لتحرير الاراضي المقدّسة. وقد استبشر الخليفة الفاطمي المستعلي بالله خيراً بقدومهم لكسر قوّة

السلجوقيين كما روى ابن الاثير في الكامل (١٠ : ١٠١) : « قيل انّ اصحاب مصر من العلويين لمّا رأوا قوّة الدولة السلجوقيّة وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزّة ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية اخرى تمنعهم . . خافوا وارسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوهُ ويكون بينهم وبين المسلمين »

ومن المعلوم انّ الفرنج فتحوا انطاكية سنة ٤٩١هـ(١٠٩٨م) ثم ساروا الى بيت المقدس مارّين بوادي العاصي ففتحوا معرّة النعمان وصالحوا اهل حمص ثمّ عدلوا الى سواحل الشام بعد ان قطعوا قسماً من البقاع فجرَوا على سيف البحر فاستولوا على طرطوس واللاذقيّة وصالحهم ابن عمّار امير طرابلس فواصلوا السَّيْر حتى بلغوا بيروت في اواسط ايّار . بعد ان قطعوا دربند نهر الكلب . وكانت بيروت لا تزال في حكم الدولة السلجوقية يأمر فيها احد الامراء التنوخيين باسم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق فطلب الى زعماء الفرنج ان يكفّوا عن أذى المدينة واهلها ولا يعبثوا بغلّاتها فرضوا بذلك على شرط أن يقدّم لجنودهم حاجتهم من الاقوات والذخائر بثمن معتدل

ثم سار الفرنج الى القدس الشريف ففتحوهُ ومأكوا على المدينة غودفريد وهو غودفروا دي بوليون فلم تطل مدّتهُ مات في السنة التالية (١٨ حزيران ١١٠٠م) وانتدب زعماء الفرنج اخاه بودوين ادروين صاحب الرها ليخلفه في ملكه فقدم من الرها وسرَّ بساحل بحر الشام فلما وصل الى دربند نهر الكلب اجتمع عليه امراء بيروت وصيدا وصور وعكاء ليصدّوه عن قطع هذا المضيق فاستطرد لهم بغدوين وحمل الامراء على جيشه فكرَّ الافرنج راجعين وتعقبوا جنود الامراء وبدّدوا شملهم واجتازوا الدربند

ولمّا ثبت الامر لبغدوين في بيت المقدس فكّر في فتح المدن الساحلية فزحف بجيشه الى بيروت مرّة اولى وضايقها سنة ١١٠٢م (٥٤٧٥) لكنه رحل عنها بعد ان اطال المقام عليها اذ لم يرَ فيها مطمعاً وكان اميرها عضد الدولة استلطف الفرنج بما قدّم اليهم من الذخائر

١ فتح الفرنج لبيروت (١١٠٩—١١٨١)

ثم عاد اليها بغدوين في السنة ١١٠٩ (٥٠٣ هـ) مع الكونت برتران دي صنجيل

ونزل على ثغرها برًّا وبحرًا وعاونها جوسلين صاحب تلّ باشر فصلوا اولًا برجاً من خشب صنوبر بيروت ونصبوه على سور المدينة فكسرهُ المسلمون بحجارة المناجيق. فجهّزوا برجين آخرين لمحاربتهم لولا ان الملك الافضل امير الجيوش ارسل في اثناء ذلك اسطولًا من مصر يتألف من تسع عشرة مركباً حربية فظهروا على مراكب الفرنج وملكوا بعضها وادخلوا الميرة الى بيروت فقويت بها نفوس اهلها

امّا الملك بغدوين فانه ارسل الى السويديّة يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها الى بيروت اربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحفوا الى بيروت باسرهم في نيسان من السنة ١١١٠ ونصبوا البرجين على اسوار المدينة واشتدُّوا في القتال فقُتل مقدّم الاسطول المصري وخلقٌ كثير من المسلمين يوم الجمعة ٢٨ من شوال. ثم هجم الفرنج على البلد في آخر النهار فملكوهُ بالسيف قهرًا وهرب اميره الذي كان فيه مع جماعة من اصحابه لكن الفرنج ادركوه وقتلوه ونهبوا البلد وسبوا من كان فيه واسروا كثيرين واستصفوا اموالهم وذخائرهم. هذه خلاصة ما رواه ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ١٣٨)

﴿كنيسة مار يوحنا في بيروت﴾ وفي تلك السنة امر الملك بغدوين ببناء كنيسة كبيرة في بيروت على طرز الكنائس اللاتينية فشيّدها على اسم القديس يوحنا المعمدان وهي على شكل مصلّب ذي ثلثة اسواق وتقدّم بنقشها وتزيينها باتصاوير البديعة. وكان النصارى يصلّون فيها مدة ولاية الصليبيين على بيروت قال صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص٥٨): «ولما قدّر الله بنزع بيروت من يد الفرنج استقرت كنيستهم جامعاً وكانت تعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا وكان بها صور فطلاها المسلمون بالطين وبقي الطين الى ايام الجد (اي جدّ المؤلف في اواخر القرن الرابع عشر) فبيّضه وازال آثار تلك الصور. وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة. فلم يكملوا في بعض الاوقات اربعين شخصاً. ثم تكاثر المسلمون بها فجعلها الله دار سلام وايمان الى يوم الدين». والجامع المذكور هنا هو الجامع الكبير الذي فيه مقام النبي يحيى ولا يزال عامرًا وقد بقي عند بابه الشرقي بقرب المدخل على شمال الداخل منه كوة مكتوبة فيها باليونانية آية الزبور (٢٨ : ٢): انّ صوت الربّ على المياه

ولعل كنيسة مار يوحنا بُنيت عوضاً عن كنيسة اخرى اقدم عهداً تبعد عنها نحو

مئة ذراع وهي التي وجدت اثارها في مدّة الحرب الاخيرة عند سوق البازركان

﴿ تحصين الفرنج لبيروت ﴾ ولما تولى الفرنج على بيروت سعوا بتحصينها فبنوا على طرفيها برجين واصلحوا سورها وكان الملك بغدوين أقطعها لاحد اشراف دولته اسمه فُلك دي غين (Foulques de Guines) او دي غِسْن (de Guisnes) وشرّفه بلقب بارون . ولما مات المذكور خلفه على ولاية بيروت سادة من ذريته تتابعوا في ملكها الى السنة ١١٨٧

﴿التلاحقة في بيروت﴾ ومن جملة ما يُذكر من احوال بيروت مدة تملُّك الفرنج عليها حلول المشايخ التلاحقة في ربوعها سنة ١١٤٤م (٥٥٣٩) فسكنوا راس بيروت حيناً وكان في المدينة قوم من امراء بني الحمراء فجرت بين الفريقين مشاجرة قُتل فيها احد بني الحمراء فخاف التلاحقة وهربوا الى مقاطعة الغرب . ثم حضر منهم الى بيروت الشيخ شاهين وكان لهُ فيها قيسارية باسمه فبلغ خبر قدوم اصحاب بني الحمراء فاغتالوه وقتلوه آخذين بثار اميرهم . لكن التلاحقة اجتمعوا تحت امرة ولدي الشيخ شاهين والخدروا الى بيروت متسلحين وكسروا ابوابها المغلقة وقتلوا كثيرين من اهلها . ومما اخبره ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ٢٣٦) انَّ صاحب بيروت الفرنجي ضبط لاحد تجّار دمشق احمالاً من الكتّان سنة ٥٢٧هـ (١١٣٢م) واخذ بازاء بها التاجر لم يُجب الى شكواهُ فارسل الى بانياس قوماً دخلوها فجأة ونهبوها وكانت في ايدي الفرنج

وفي السنة ٥٤٦ هـ (١١٥١م) روى ابن القلانسي (ص ٣١٥) وشهاب الدين المقدسي في كتاب الروضتين (١ : ٨٠) ان اسطولاً مصرياً كانت عدّةُ مراكبه ٧٠ مركباً حربيّة مشحنة بالرجال قصدوا سواحل الشام فنزلوا الى بيروت وقتلوا ونهبوا واحرقوا كما فعلوا في بقيّة ثغور الشام

وفي السنة ١١٦٢م توفي في بيروت ملك القدس بغدوين الثالث وكان راجعاً من انطاكية الى حاضرة مملكته فمات على ما يقال مسموماً بدسيسة طبيب يهودي يُدعى براقاً

٢ انتزاع السلطان صلاح الدين بيروت من الفرنج

وفي السنة ١١٨١ وفد السلطان صلاح الدين الايوبي بعساكره الى بيروت فغزا

أرباضها وقطع كرمها لكنه لم يفتح المدينة. قال ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٧٨ ه. «ثم سار صلاح الدين من دمشق الى بيروت فنهب بلدهـا . وكان قد امر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها. وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عـدة ايام وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها انّ البحر قد القى بطسةً للفرنج فيها جمعٌ عظيم منهم الى دمياط كانوا خرجوا لزيارة بيت المقدس فـأسروا مَنْ بها .. ورحل السلطان من بيروت». واما ابن شداد فقال في سيرة صلاح الدين «انه نزل بيروت ولم ينل منها غرضاً واجتمع الفرنج ورحلوه عنها»

ثم عاد اليها السلطان بعد انتصاره العظيم على الصليبيين في واقعـة حطّين قرب طبرية سنة ١١٨٧ وفتحه بيت المقدس وعدّة مدن اخرى فقدم الى بيروت وفتحها بعد ان حاصرها ثمانية ايام ونصب عليها المجانيق التي اتخذها من زيتونها . فسأله الفرنج الامان فأمّنهم فتوجهوا الى صور وتسلم صلاح الدين المدينة ونصب على اسوارهـا السنجق السلطاني في ٢٩ جمادي الاولى وقيـل في ٢٧ منه سنـة ٥٨٣ (اوائل آب ١١٨٧م) ثم ولّى عليها اميرًا يُدعى سيف الدين عليّ الهكاري المعروف بابن المشطوب

ثم سار ابن المشطوب في صحبة صلاح الدين لمحاربة الفرنج في عكا فوُلّي عليها رجل واسع الشهرة وهو الامير عزّ الدين منقـذ احد اصحاب قلعة شيزر . قال فيه صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص٣٥-٣٦) : «وكان من المعظّمين عند السلطان حتى لم يكن يقدّم عليه احدًا في المشورة والرأي وهو الذي بنى قلعة عجلون»

ولما فتح الفرنج عكا تفقد صلاح الدين رواحل الشام واقـام في بيروت اياماً. وفي اثناء وجوده حضر اليه بوهيمند الثالث صاحب انطاكية. قال ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م) : «ولما وصل السلطان صلاح الدين الى بيروت اتاه بيمنـد صاحب انطاكية وطرابلس واعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده». وقال ابن شدّاد في سيرة صلاح الدين التي عنوانها : النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (Historiens des Croisades : *Historiens Orientaux* III. 346) ان السلطان «بالغ في احترامه واكرامـه ومباسطته وانعم عليه بالعتق واغزران ومزارع تعمل خمسة عشر الف دينار». وهي اقطاعات بقرب انطاكية (له صلة)